التصوف الاسلامى قوة ايجابية

للأستاذ الدكتور حسن عباس زكى

وزير الاقتصاد

لقد ذكرنى هذا العنوان بقول برنارد شو : « لقد وضعت دائما دين الاسلام ، موضع الاعتبار ، بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس » .

والامام الغزالى يعرف التصوف بأنه عمل مبنى على العلم ، وأنه قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله ، وتحليته بذكر الله » .

والتصوف بهذا المعنى هو روح الدين ، فهو إذا رعاية كاملة لتطبيق مبادىء الاسلام وعقائده ، تلك المبادىء والعقائد التى تصلح لكل زمان ، ومكان ، لأنها تعبير عن الحياة فى حقيقتها التى تستوجب الإيجابية فى التفكير ، والإيجابية فى التنفيذ ، وتتطلب التطور المستمر للمجتمع البشرى ، حتى يسير مع خط الحياة الصاعد أبدا ، لا يتعرج ولا يتلوى ولا ينتكس ، ولن يكون مفهوم الزهد فيه حجر عثرة فى سبيل التقدم ، وإنما هو إلقاء الأضواء على طيبات الحياة ، لنقبل عليها ونفهمها ، ونتمتع بها ، فى الحدود التى تخلى النفوس من الجشع والطمع والاستئثار ، وتوجهها إلى محبة الانسانية ممثلة فى محبة خالقها .

ومفاهيم التصوف الأصلية ، تنأى عن السلبية ، لأنها تخلق فى المتصوف طاقة تدفعه إلى الحركة ، وتفيض عليه الحياة ، بكل معانيها الصافية من التفانى والإخلاص والخوف والرجاء والورع .

إننا فى عصر الذرة والالكترون والطاقة فى حاجة إلى أن يعرف الإنسان حقيقته وحقيقة الوجود كله ، ويتبين آيات الله فى الآفاق وفى نفسه ، وهو فى حاجة إلى ورع التصوف الإسلامى ، ليقبل على الله ، فلا تفتنه الظواهر ولا تقطعه عن العمل للدنيا ، ليقوم أفراد المجتمع على أساس من أدب الإسلام وتعاليمه السامية إلى التضحية بالنفس والمال .

ونحن فى حاجة إلى خوف التصوف ورجائه ، لأننا نمر بفترة حاسمة فى تاريخنا العربى ، نعمل لإعادة مجد الأمة الإسلامية من جديد ، وهذا يتطلب من كل فرد أن يعمل فى ميدانه ، متوخيا الدقة والتجديد والابتكار والإخلاص .

فالخوف من الله يحجبنا عن التهاون فى حقوق المجتمع ، وحقوق الوطن ، والوالدين ، والرجاء يحفزنا إلى إتقان العمل وتجويده ، ويبعدنا عن التمنى الذى لا عمل فيه ، لأن التمنى انطواء ، والانطواء مضيعة للوقت وللحياة . . ولذا يشترط ابن عطاء فى الرجاء أن يقارنه عمل وإلا كان مجرد أمنية ، والأمانى مخالفة للعبودية .

يخطىء من يفهم الصوفية الإسلامية على أنها اخلاقيات ومثاليات وعبادات فحسب ، إنها إلى جانب المعانى حقائق حية تتمثل فى الفرد عملا ، وفى أرواح الجماهير قوة فعالة ، تطبع المجتمع بطابع الفدائية ، وتجعل كل فرد يعيش مع أخيه فى نطاق الأخوة المؤمنة .

وإذا كان التصوف الإسلامى حياة روحية مستقاة من كتاب الله وحياة الرسول فى أقواله وأعماله ، فكتاب الله وحياة الرسول قد أسبغا على النشاط الانسانى حركة إيجابية فعالة ، يوم بعث النبى ونزل عليه القرآن الكريم وسط هذه الصحراء الجرداء ، بين قوم يعيشون على العصبية القبلية ، فخلق منهم قوة دافعة استطاعت أن تكون مجتمعا شق طريقه بين الأمم ، وأوجد نظاما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، مازالت الأمم إلى اليوم تحذ وحذوه وتقتبس منه ، لقد خلق من الحفاة العراة هداة الانسانية وقادة الفكر فى العالم ، وجعل منهم أبطالا بما بثه فيهم من روح الإيمان المشرق ، فحققوا السيادة لكل مؤمن ، واكتشفوا من سنن الوجود ما أوصل الحضارة الانسانية إلى ما وصلت إليه اليوم . وان ليس للانسان إلا ماسعى ، وان سعيه سوف يرى .

ان مجتمعنا اليوم فى حاجة إلى المعرفة التى ينادى بها التصوف ، لأن هذه المعرفة هى العلم الذى يجعل صاحبه يعقل الأمور ، ويفهم حقائقها ، وقد قال الرسول عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا ...

والحب فى التصوف يحدونا إلى الاشتراكية فى المال ، فيبذل الانسان من ذات نفسه ، وماله : وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يتصدق بماله كله ، ولما سأله الرسول الكريم :

ماذا أبقيت لأهلك ، قال : الله ورسوله ، كما أن المتصوف يدرك أنه خليفة على

المال فهما لقوله تعالى : وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، وهذه الزكاة فى المال ، وزكاة الفطر والكفارة كلها أنواع للاشتراكية ، وليس هناك اشتراكية تسمو على قول الرسول (من كان عنده فضل مال ، فليعد به على من لا مال له ، ومن كان عنده فضل ظهر ، فليعد به على من لا ظهر له .

والحب والفناء فى التصوف الإسلامى ، يدفعان إلى التزام قوانين الانسانية الراقية ، كما يدفعان إلى القوة التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله :

وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم . تلك القوة التى يقصد منها حماية الأعراض ، وصيانة الأنفس والأموال ، وحفظ أمن الدولة ، وسلامة نظمها .

فهذه هى قوة حب الانسانية بعضها لبعض ، قوة الأمن تنتشر فى العالم ، فتطمئن النفوس ، قوة المحبة التى لا غرض لها إلا أن يعيش العالم فى سلام .

قوة من يفدى بنفسه ، لا ينتظر عليها أجرا ، قوة صاحب النقب الذى وقف أمام مسلمة بن عبد الملك ، بعد أن نقب حصن الروم قائلا لمسلمة عندما أراد أن يكافئه :

« ان صاحب النقب يأخذ عليكم عهدا ألا تسردوا أسمه فى صحيفة ، ولا تأمروله بشىء ولا تسألوه من هو ، فإنه قد فعل ما فعل لله وللناس ، ثم ولى منصرفا وهو مقنع لا ترى منه غير عينيه .

وتتجلى إيجابية التصوف فيما رواه محى الدين بن عربى فى محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار قال : التقى إبراهيم بن أدهم بشفيق البلخى بمكة ، فقال ابراهيم لشفيق ، ما بدا أمرك الذى أبلغك هذا ؟ قال مررت ببعض الفلوات ، فرأيت طيرا مكسور الجناحين ، فى فلاة من الأرض ، فقلت ، انظر من أين يرزق هذا ؟ فقعدت بجزائه فإذا أنا بطير قد أقبل فى منقاره جرادة ، فوضعها فى منقار الطير المكسور الجناحين ، فقلت لنفسى : يانفس ، ان الذى قيض هذا الطير الصحيح لهذا الطير المكسور الجناحين فى فلاة من الأرض هو قادر ان يرزقنى حيث كنت ، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة ، فقال إبراهيم ياشفيق ، ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم العليل ، حتى تكون أفضل منه ، أما سمعت أن النبى عليه السلام قال : اليد العليا خير من اليد السفلى ، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين فى أموره كلها

حتى يبلغ منازل الأبرار ، فأخذ شفيق بيد إبراهيم فقبلها وقال : أنت أستاذنا يا أبا اسحاق .

هذه هى الإيجابية فى الحياة يعرفها أهل التصوف الإسلامى ، ويحثون غيرهم على العمل بها ؛ وها نحن ندرك على ضوء العلم مدى الصلة بين الأفكار والأعمال . فالعمليات النفسية والفكرية والعاطفية هى أساس العمليات البدنية ، فإذا اتسمت القلوب بالمحبة والعقول بالمعرفه ، والنفوس بالتفانى والاخلاص ، دفعت إلى الإنتاج. إنتاج الزارع فى أرضه ، والصانع فى مصنعه والموظف فى وظيفته ، وكل ذى حرفة أو مهنة فى عمله ، وأحس كل فرد بأنه عضو فى جسم المجتمع إذا أصاب الضعف منه عضوا تداعى له سائر الجسم بالسهر والحمى .

لقد أثبت العلم أن الكون متشابك مترابط ، وهذه الحقيقة التى ينشدها التصوف منذ كان . . . ولذا كان ينتزع بصاحبه أن يتأمل ويتعمق ، ويترفع به أن يدين بالمادية حتى لا تعرقل نموه الروحى ، وتجعل حياته بلا غاية أو أمل . .